# فـن تصميم الكتاب، نظرية إسلامية

فـؤاد خصـاونة*

نستطيع أن نتحدث عن ولادة نظرية تتحدث في تصميم الكتاب معتمدة على المصحف الشريف وعلى فنونه , حيث أنه لم يسبق لأي أحد دراسة الفن الإسلامي بوصفه جزءاً حقيقياً من التصميم الذي نعرف اليوم , بل أغفل العديد من الباحثين في دراساتهم تأطير نظريات التصميم الإسلامي والتي توجد بأكثر من مجال، لاسيما أن معظم فنون الكتاب في الوقت الحاضر جاءت معتمدة بشكل أساسي على الفنون الفرعية الإسلامية كالزخرفة والخط والتذهيب والتجليد وغيرها والتي جاءت جميعها ولادة إسلامية خالصة وتطورت حتى وصلت الينا في الوقت الحاضر باسم فنون الكتاب .

هناك حقيقتان لا يمكن إغفالهما عند الشروع بمحاولة تأطير نظرية تصميم الكتاب المخطوط بالحرف العربي .أولهما ظروف نشأه المخطوط بعيداً عن نصوصه الذي يدركها الفيلولوجيون(1), وثانيهما الدور الذي لعبه المصحف في نشأة الكتاب الذي نعرف اليوم بشكله الحالي (الكوديكسcodex ), والباحث يجب أن يدرك أهمية هذه الدراسة عند الشروع بدراسة الكوديكولوجيا بشقها الفني.

يدرك معظم الكوديكولوجيين(2) والمهتمين بدراسة تصميم الكتاب فيما يخص المخطوط بالحرف العربي أنه من غير الممكن دراسة النصوص ومعرفة تاريخ خط المخطوط بعيداً عن دراسة الظروف التي نشأت بها مادية المخطوط ,فمن الضروري جداً الشروع بدراسة هذا الشق لارتباطها الوثيق بنشأة الكتاب بشكله الحالي والذي يعرف باسم (codex) فإن فحوى ما يقوم بها الكوديكولوجيون الجدد (علماء صناعة الكتاب) هو دراسة مادية المخطوط والتي تدخل بأكثر من جانب في الفنون التي رافقت نشأت المخطوط بعيداً عن النصوص وفحواها , إن ما تقوم به الكوديكولوجيا الآن يمكن تشبيهها برفع الأثر عن

* جـامعة فيلادلفيا – الأردن

المخطوط الذي يمكن التعبير عنه بشكل أدق بما يقوم به الأثريون (الأركيولوجيان) (3) من رفع الأثر عن القطع الأثرية لمعرفة تاريخها أثناء عملية التنقيب .أي رفع أثر المخطوط والتنقيب داخلة للبحث في خاماته ودراسة فنونه بعيداً عن الخط الذي تختص البالوغرافيا بدراسته أو ما أطلق عليه مجدداً علم الاكتناه .

اذاً الشق الذي نبحث عنه في الكوديكولوجيا هو الذي يبحث في دراسة خامات المخطوط , فنونه ونسخه والوسائل والأدوات التي استخدمت في صناعته , بعيداً عن النصوص والخطوط, التي سوف تساهم دراستها بشكل وافي في المستقبل في دراسة نشأة وتصميم الكتاب (codex) الذي نعرفه اليوم , ومن هنا شرع الباحثون بدراسة الخامات كالآمدة والأحبار والورق والوراقة والتجليد وغيرها من المواد التي دخلت في صناعة المخطوط ,ولعل أهم الدراسات التي وصلت الينا ماقام به العالم الفرنسي ديروش في كتابة الموسوم بالمدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي , الذي ساعدنا بتحديد النقاط الرئيسيه في دراستنا للمخطوط العربي من الجانب المادي والفني .

ومن المعروف أن المخطوط العربي ترعرع وتطور في ظل المصحف الشريف ذلك الذي تم نسخ الآلاف منه بمختلف الخامات, فدراسة المصحف عبر العصور تعتبر خير الدراسات الكوديكولوجية في شقها المادي في الوقت الحاضر, بسبب استمرارية إنتاجه, وتنوع فنونه وخاماتها , مع ثبات نصوصه , إن ما يعنيني هنا ليس التوغل في تفسير علم الكوديكولوجيا بقدر الإشارة للدور الذي سيلعبه هذا الشق في إثبات نظرية تصميم الكتاب ,فهذه الحقيقة لا يمكن إغفالها, وبخاصة أن هذا العلم مازال وليد الساعة , ويحتاج أناساً متخصصين ووقتاً كافياً لإثبات هذا الشق .

أما الحقيقة الثانية التي تعتبر الأهم في مجال علم دراسة المخطوط في الوقت الحاضر وأصبحت تعد جزءاً مهماً عند دراسة تصميم الكتاب , هي أن الكتاب بشكله الحالي وليد المخطوط بالحرف العربي ولاسيّما المصحف الشريف منه, وهذا ما يحاول بعض الباحثين هنا وهناك إثباته من خلال تأطير النظريات التي تتبنى هذا الفكر ومن خلال اتباع منهج علمي مبني على علم الكوديكولوجيا.

من المعروف لدى الباحثين وما وصل الينا من بقايا نصوص محفوظة من الحضارات القديمة بأن النصوص كانت تحفظ بشكل يعرف باللفائف أو الرقم الطينية (4) , أما ما يطلق علية اسم كتاب والذي نعرفه بالشكل الحالي فلم يتم التعرف عليه إلا مع بداية الإسلام , وبدء دورة التصميم والتطور في العهد الإسلامي الأول , ولم يتضح بالشكل القطعي فيما إذا كان هذا الشكل جاء وليد الصدفة, أو أنه جاء بناء على أفكار فلسفية ورمزيه لدى المسلمين في ذلك الوقت , وعلى العموم هناك نظرية يقدمها (اتنجهوزن) بهذا الشأن تقوم على الاعتقاد بأن ناسخي المصاحف تأثروا في ذلك الوقت بما كانوا يشاهدونه في المساجد من فناء مفتوح وأعمدة أفقية تسير بموازاة جدار المحراب , وأيضا يتحدث عن التأثر بصفوف المصلين الأفقية والمسافة بينهما والتي أثارت بشكل جذري بالسطور داخل القطع الورقي . فمن هنا كانت الرؤيا أن يجعلوا المظهر الخارجي للمصاحف متفقاً مع الاتجاه الأفقي للمساجد(5)

واذا أردنا أن نعرف المقصود بالكوديكس فيجب أن نحدد النقاط الرئيسية التي يرتكز عليها والتي يمكن إجمالها بما يأتي: أولاً : دفتان تغطي الصفحات التي يمكن أن نطلق عليها في الوقت الحاضر غلاف الكتاب , ثانياً: مجموعة من الأوراق الأفقية التي ترتبط فيما بينها بوسيط كالخيط. ثالثاً: المتن: أي النص المعرفي الموجود بالكتاب . والذي بدأ الإنتاج الفعلي لهذا الشكل مع بداية تدوين القرآن الكريم. ويمكن إجمال التصميم بثلاثة أشكال رئيسة تختلف فيما بينها بالمساحات , فالشكل الأول هو الشكل الأقرب إلى المربع والذي يعتبر نادر الوجود, والشكل الثاني الذي فيه ارتفاع الصفحة أقل من عرضها أو ما يطلق عليه اسم الكتاب الأفقي , والشكل الثالث الذي يكون فيها ارتفاع الصفحة أطول من عرضها والذي عرف بالشكل العمودي وهو نادر الوجود ايضاً . (6)

ومع أن معظم القرائن تشير إلى عدم ظهور هذا التصميم للكتاب قبل الإسلام. لكن لا نستطيع أن نجزم بذلك. بل تبقى نسبة هذا الى الإسلام مجرد نظرية نحاول إثباتها والدفاع عنها .فلم تعرف أي حضارة انتشار معرفي بحجم الحضارة الإسلامية, في ذلك الوقت. ولعل ولادة الكتاب كانت لأسباب ذات أهمية كبرى لدى المسلمين. ألا وهي تدوين أكبر نص مقدس عرفته البشرية وهو القرآن الكريم , بمكان يحفظها ويسهل قراءتها , ويمكن أن نؤكد على أن هذه العملية بدأت فعليا مع بداية نزول الوحي على الرسول عليه السلام. وهنا يمكن أن نطلق عليها مرحلة الشرارة الأول التي ساهمت ببدء ولادة الكتاب الإسلامي , وفي ذلك الوقت كانت المصادر ما تزال محدودة فقد تم استخدام خامات مختلفة وذات أشكال وأحجام مختلفة لتدوين نص القرآن الذي كان عرضة للضياع , فقد سجلت النصوص المقدسة على خامات مختلفة وبأحجام مختلفة ولم يتم جمعها بمكان واحد , فكانت عرضه للضياع. وكان ذلك هو الدافع الأساسي للبدء بالتفكير الجدي بإيجاد بديل يحفظ نص القرآن من الضياع , فبدء العملية الثانية للجمع تأخذ منحنى مختلفاً معتمدة على ما تم جمعه أيام الرسول ولكن هذه المرة باستخدام خامة واحدة ومصمم. فقد أمر سيدنا أبو بكر الصديق بجمع الآيات بمكان واحد بشكل يحفظها ويسهل استخدامها , فبدأ سيدنا عثمان بوضع الأفكار الأولية للشكل المطلوب ,وتم تنسيب العمل إلى المصمم الفعلي. وهو زيد بن ثابت الذي وضع التصميم الأول لشكل الكتاب الإسلامي بشكله الحالي , والذي ينسب له الفضل بجمع مجموعة من الأوراق بين دفتين , وللأسف لم يصل الينا هذا المصحف لكي نقوم بدراسة كوديكولوجية وافية له ,فكل ما وصل إلينا هو أخبار المصادر العربية عن تاريخ القرآن الكريم.

في المرحلتين السابقتين كان الكتاب مازال يمر بمراحل التطوير والتحسين للخروج بتصميم نهائي يكون للمسلمين السبق به ويميز القرآن عن باقي الكتب السماوية أو النصوص العربية المخطوطة ,هذا ما سعى إليه سيدنا عثمان, فقد أراد عملاً يحفظ ويمجد على مر السنين يحمل اسم الخلافة الإسلامية , وبالفعل بدأ بالتخطيط للتدوين الثالث والذي اعتمد على التدوينين السابقين مع إجراء التحسين بالخامات والخطوط , وأيضا بقياس الصفحات , فالتدوين الثاني كان المصحف فيه ذا قطع كبير وثقيل الوزن بسبب استخدام خامات الجلود المختلفة ولاسيما الأديم . فكانت الحاجة إلى التفكير بالخامة المناسبة وبالفعل بدأ زيد بالتصميم الفعلي للمصحف معتمداً على خامة واحدة وقياس واحد , وأنتج مجموعة من النسخ للمصحف كانت أول إنتاج لكتاب إسلامي يحمل أكثر من نسخة , وكان بداية الطريق الذي اعتمد عليه في تصميم الكتاب إلى الوقت الحاضر .

## الـــهـــوامش

1. الفيلولوجيا : (philology) هو العلم الذي يهتم بدراسة النصوص القديمة, في المخطوطات .
2.علم المخطوطات (Codicology) هو دراسة الكتب كمادية. وخاصة المخطوطات المكتوبة على الرق فعلى شكل المخطوطات الماثورة أو Codex وغالبا مايشار اليها باسم علم اثار الكتاب حيث يهتم هذا العلم بالمواد والطرق المستخدمة في صناعة الكتب و تجليدها.
3. نعني الأركيولوجيان :هو علم الذي يهتم باعادة بناء القطعة الأثرية ليتمكن من دراستها ( الاثاريون )
4.يمكن توضيحه بشكل ادق من خلال المصطلح (volumen)
5. مرزوق محمد : المصحف الشريف دراسة تاريخية وفنية , ص 63 .
6. المرجع السابق ص 61